## الفصـــل الثالث

## رالف والدو ايمرسون ونظريته الميسامية

## ( نظرية الترنسندنتالية )

عندما كان رالف والدو ايمرسون شابا كان تواقا الى أن يصبح حرا والى أن يتخطى الحكمة التقليدية التى كانت سائدة فى عصره وفى مكانه وأن يعيش حياة مستقلة بذاتها . والواقع أن هذا الأمر لم يكن بهذه السهولة ؛ وعلى غير ما كان عليه باين فان ايمرسون كان غير مطمئن الى مسألة الارادة الحرة وايمرسون ابن لأحد القساوسة التابعين لمذهب التوحيد ؛ وكان فى أسرته أجيال من القساوسة الآخرين من أتباع كالفن . وحينما بلغ ايمرسون التاسعة عشرة من عمره كان يتأمل ويفكر فى مواضيع مثل هذا الموضوع « كيف يمكن أن يواءم بين حريته وهذه السلسلة الضرورية الأبدية للعلة والمعلول التى تربط بينه وبين الطبيعة بصورة لا يمكن الفكاك منها ؟ كيف يمكنه أن يواءم بين حريته وبين لوحة المسطور الذى قرر مصيره قبل أن يخرج هذا الصبى الى هذا العالم بوقت طويل ؟

وكان من رأى الشاب أن من يستطيع أن يجيب على هذه الأسئلة المحيرة بصورة لا تحتمل الشك يجب أن يكون رجلا شجاعا ؛ ولكنه ـ مع هذا ـ عزم على أن يحاول ذلك هو نفسه وراح يقرأ ما كتبه ادواردز عن الارادة الحرة ونقل مقتطفات مما سطره فلاسفة مشهورون عن الليبرالية والضروريات فى كتاب خصصه لاقوال هؤلاء الفلاسفة بدأ فى جمعه عام ١٨٢٤ ولما أصبح قسا من دعاة التوحيد عام ١٨٢٦ مضى فى طريق الكشف عن موضوع الحرية من خلال عظاته التى كان يلقيها أيام الآحاد . وكان مما قاله مرة لمجموعة من مرتادى كنيسته أنه « حين نقول أننا أحرار فاننا نقول ذلك ونحن .. نؤمن بعقيدة لا يتحملها العقل . وعلينا اذن أن نقف عند ما يقبل العقل هذه العقيدة أم لا » ومضى ايمرسون يقول « انما نشعر خلال كل ما نقوم به من عمل أننا قد نفعل أو لا نفعل ما نريد ؛ كما أننا نشعر بأننا قد نكون المتصرفين فى مصائرنا بدون أن نسأل عنها » .

وكانت مسألة السيادة والتصرف فى مصيره موضوعا أولاه الشاب ايمرسون بعض الأهمية العاجلة · فقد دخل فى سلك الكهنوت بعد أن درس فى هارفارد وهو تخالجه الشكوك · وكان الجانب الدراسى فى حياة قسيس من دعاة التوحيد أمرا يروق لايمرسون وقد وجد فيها بعض المنافذ للتنفيس عن طاقته الخلاقة عندما كان يجلس لاعداد عظاته ولكن واجباته الكنسية ؛ مثل زيارة المرضى وعقد فصول لدراسة التوراة واقامة الصلوات العامة كانت منهكة شاقة · وكان العمل بالكنيسة كـــكل يبدو وكأنه عمـــــل يدعو الى الاعتراض · وكان ايمرسون يرى فى مذهب التوحيد « جثة باردة » تفتقر الى قلب وروح · وقد كتب فى يومياته « أنه بغير روح فان حرية مذهبنا فى التوحيد هنا تصبح باردة عميقة وممقوتة » وقد أقر بأن الكنيسة قد أتاحت له قدرا كبيرا من الليبرالية ولكن هذا القدر لم يكن كافيا · فقد كان يريد أن يتمتع بحرية لا حدود لها ليستطيع أن يغوص لينقب فى أعماق قلب الانسان ؛ وأن يرتفع بعقله الى فضاء الكون الواسع وأن يسبح فى فترات الزمان الطويلة ليمكنه أن يقول بعد ذلك ما يعتقد· وما يحس به عن أشياء بامانة مطلقة وبدون ثمة اعتبار للآراء السائدة فى عصره أو التى سادت فى غيره من العصور ·

ولما أعلن ايمرسون فى نهاية الأمر عزمه على الاستقالة من ابرشيته للكنيسة الثانية ببوسطن فى سبتمبر ١٨٣٢ ركز على القول بأن السبب المباشر الذى دعاه الى تقديم استقالته كان وازع الضـــمير الذى كان يقلقه لعـــدم استطاعته ادارة فريضة العشاء الربانى · ولكن السبب الحقيقى فى الواقع كان أعمق من ذلك ؛ فقد قصرت مهنة الكهنوت حتى فى كنيسة ليبرالية ككنيسة اتباع مذهب التوحيد عن السماح له بأن يكون سيد نفسه وصاحب مصيره هو ذاته · وكان يعلن أمام المصلين أن الحرية كانت روح المسيحية وان هدفها هو جعل الناس أناسا طيبين وعقلاء وان مؤسساتها يجب أن تكون مرنة حتى تتواءم مع احتياجات الانسان · ولكن الكيفية التى كانت تدار بها الكنيسة ؛ والتى كان العشاء الربانى أحد نماذجها · كانت شديدة قاسية لم تعد تفى باحتياجاته هو نفسه واعلن ( أن رغبتى هى فى الا أعمل أى شىء بدون وازع من كل قلبى ) واضاف الى ذلك قوله « وبعد أن قلت هذا فاننى أكـــون قد قلت كل شىء » ·

## الاعتماد على النفس و الالهام

وأحس ايمرسون براحة كبيرة عندما أخلت الكنيسة الثانية سبيله فى اكتوبر · وقد أكد لأخيه وليم يومئذ قوله « اننى أسير بثبات تجاه السلام والحرية اللذين اراهما أمامى وأن كانا بعيدين عنى » وراح يذكر له مشروعاته عن « العمل والآداب والفلسفة » التى كانت تعتمل فى رأسه · وكان من بينها احتمال لنشر مجلة جديدة يستطيع أن يعبر من خلالها عن فرديته وشخصيته الخاصة · وبعد أن أقام برحلة الى أوروبا حيث اجتمع بصمويل تايلور كولريدج وتوماس كارليل الذى لفت اليه نظره بعد أن أبتعد عن الفلسفة الحسية » التى كان يعتنقها أصحاب المذهب التجريبى البريطانيون ؛ عكف على القاء المحاضرات وبدأ حياته الجديدة كمحاضر وكاتب وشاعر وفيلسوف ومحرر صحف · وهنا كانت ثورته ضد المنطق ومذهب التوحيد « ذى الجسد البارد » قد بلغت منتهاها وعكف على وضع الأسس الرئيسية « للفلسفة الحدسية » التى سرعان ما اطلق عليها فلسفة التسامى » وكان من أهم ما قامت عليه هذه الفلسفة التمييز الذى وضعه كولريدج بين «العقل» ( الادراك الوجدانى للحقائق العامة ) و « الفهم » ( الملاحظة التجريبية والتعميم الاستنتاجى ) وفى رسالة بعث بها أيمرسون لأخيه وصف « العقل » بأنه ( أعلى سلطات النفس ؛ وهو ما نعنى به غالبا النفس · ذاتها · والعقل لا يقدم أى تعليل كما أنه لا يقدم أى برهان ؛ أنه يدرك الأشياء بالحس فقط انه رؤية أما الفهم والادراك فهما يعملان طوال الوقت ؛ فهما يقومان بعقد المقارنة بين الأشياء ويستنبطان ؛ ويضيفان الى الأسئلة ويجادلان ؛ وهما وان كانا من ذوى الرؤية القريبة الا أنها رؤية قوية ؛ يعيشان فى الحاضر الملائم المعروف · وللوحوش بعض الادراك ولكن ليس لها عقل · والعقل يكمن تاما فى كل انسان · أما الادراك فيوجد على درجات مختلفة من القوة ·· والدين والشعر والشرف ينتمون الى العقل ··· الى الحقيقة والى المطلق ·

وسرعة الادراك وبصيرة النفس ( العقل ) هى بالاختصار الطريق الذى يسمو على العقل ويوصل الى الحرية · ومن رأى ايمرسون أنه اذا تبصر الانسان مليا فى البصائر المفاجئة والرغبات التلقائية والأفكار غير السليمة التى تنبثق من وجدانه فانه يستطيع والحالة هذه أن يحرر نفسه من صرامة وقسوة مجتمعه وتقاليده المرعية وان ينمى ويزيد من استقلاله الذاتى المعنوى

والفكر الصحيح · وفى اشادته بالعقل اتجـه الى الاستخفاف بالـدور الذى يقـوم به التـأمل الخطيـر فى النشـاط الخـلاق ؛ ولكن مذكراته ومفكراته أظهرت أنه عالج بدقة عددا من أفكاره الكامنة فى قرارة نفسـه قبـل أن يقـدمها للجمهـور · وفى سـبتمبر ١٨٣٦ · نشر كتيبـه الصـغير ذا اللون السماوى بعنـوان « الطبيعة » تضـمن بيانا منظما تنظيما جميلا عن نظرة العالم الى نظرية التسامى ؛ وفى أغسطس ١٨٣٧ القى خطابا فى ( بيتا كابا ) عن « المثقف الأمريكى » تناول فيه الأدب والمعرفة من زواية التعالى والسمو ؛ وفى يوليه ١٨٣٨ القى خطاب مدرسته الكهنوتية بهارفارد استعلى فيه على المسيحية مما جلب عليـه غضب المحافظين من اتباع مذهب التوحيد · وفى يوليه ١٨٤٠ شـاهد أول عـدد يخرج من المطبعة من صحيفة « دايل » التى لم تعمر طويلا ؛ وكان قد اسهم فى تحريرها ·

وكان ايمرسون يشعر أحيانا بسعادة تصل الى الخوف من جراء الحرية التى حصل عليها مؤخرا · وفى مرة من المرات قـال « أنه لأمر رهيب أن تنظر الى داخل عقل الانسان وترى كيف أصبحنا أحرارا ··· أما فى خارج هذا النطاق ؛ حين تكون بين زملائك وبين الغرباء ، فواجبك أن تحافظ على مظهرك ولو أن هناك مئات الأشياء التى لا تستطيع أن تفعلها · أما من حيث الداخل ؛ فهناك الحرية المرعية ! » ولكن الحرية كانت فى المقام الأول مدعاة للفرح والبهجة ؛ وكان يقول « ان من الخير أن تعتاد وان تتطبع بأفـكارك الخاصة والا تتحاشى الاعراب عنها » · وفى غمرة الفرحة التى غمرته بعد أن ترك الكنيسة ووجد حرفته الحقيقية راح ايمرسون يسير أعماق ضميره المتعالى ويعلن ما توصل اليه بحماس وانتصار رجل رأى أرضا جديدة · والواقع أن تأملات ايمرسون الخيالية · شأنها شأن تأملات أى مفكر خـلاق آخر · كانت بلا شك منهلا كبيرا لأشياء جديدة وأصيلة فى نظرته المتسامية · وفى التعبير عن هذه النظرة · وكما يحدث فى مثل هذه التأملات انتشل ايمرسون نفسه من احتياجاته العميقة ومصالحه وتجاربه ولم يكن عالم التسامى الذى صوره عالما جديدا بكليته بأى صورة من الصور · وكثير مما أعلنه للعالم بعد أن ترك الكنيسة كان يضمنه عظاته · وقد اتسمت نظريته المتسامية الكمال الذى كان ينشده اسلافه من المتزمتين فى أمور الدين وارتفع الى ذروة مجردا من كل الزخارف اللاهوتية · والواقع أن كلمات ايمرسون التى كان يلقيها

من منبر الوعظ الخاص بانصار التوحيد كانت تكهنا ملحوظا بما قاله بعد ذلك بوصفه فيلسوفا متساميا • وبالرغم من أن لغة مواعظه كانت فى معظمها واضحة غير مزخرفة تفتقر الى العبارة الجزلة والصورة المذهلة التى أضفاها على تصريحاته المتسامية الا أنها كانت تتضمن مقولاته العظيمة رغم أنها كانت لا تزال جذينا لم يولد ؛ فقد تحدث من قبل عن تصميمه على بناء خلق الانسان وعلى الحقائق الذاتية والنزاهة وطهارة الذمة وأهمية وصول الانسان الى ما يلائمه من عمل فى هذه الحياة وتنمية المواهب التى وهبها الله الى أقصى مدى والارتفاع بالتأملات على التحليل المنطقى كوسيلة للوصول الى أعمق الحقائق ، والايمان بأن القوانين الروحية تتحكم فى كل من الطبيعة والانسانية • وان ( العقل الواسع ) فطرى فى كل العمليات الطبيعية والمعنوية وان الاعتقاد بأن الحرية فى اسمى درجاتها حرية معنوية ومنطقية موجودة فى الطبيعة وأنها تسمو على عالم الخصوصيات التجريبية •

وعندما وجد ايمرسون حياته الحقيقية كفنان أدبى وفيلسوف متسام أحس فى نهاية الأمر بأنه سيد نفسه ومالك ارادته بدون جدال وكان يتوق الى أن يشرك غيره فى تجربته وقد آمن بأن الحرية انما ترسخ فى الثقة بالذات ولذلك فقد امضى بقية حياته وهو يبشر بنى وطنه بما حصل عليه من علم • وقد أعلن لطلبته ( فى بيتا كابا ) بهارفارد « بأن على المثقف أن يكون حرا وشجاعا حرا حتى فى تعريفه للحرية بدون أن يكون هناك أى حائل لايظهر من فطرته هو نفسه » واذا كانت رسالة ايمرسون الأساسية التى وجهها للعالم تدعو الى حرية الاعتماد الذاتى فانه مع هذا اعتبر هذا النمط من الحرية من زاوية متسامية أمرا لا يمكن الانفصام عنه • وطالما كرر القول بأنه اذا أراد المرء أن يصبح حرا فعليه أن يسمو على زمنه وبيئته ويحافظ على استقلاله عن عادات المجتمع وتقاليده وعادات تفكيره اذا ما تبين له أنها كانت قائمة على التراضى المتبادل وعلى مقتضيات الحال ( الفهم ) فضلا عن المبادىء المعنوية ( العقل ) • وقد رد مرة على أحد السائلين بقوله « انه اذا اراد أن يتعرف فى أى وقت على ما يؤمن به اتباع نظرية التسامى فليس عليه الا حذف ما اضاف من تقاليد مما غرسه فى عقله هو نفسه وبعد ذلك فكل ما يتبقى لديه يعد من أعمال التسامى •

والشخص المتسامى غير المتمسك بالتقاليد الذى تصوره ايمرسون يشبه

الى حد بعيد الشخص الطبيعى المنعزل عن التقاليد الذى تخيله باين سواء فى عقله وحكمته أو لياقته وذوقه ؛ ومع أن مثـل هـذا الانسان لم يكن يهتم اهتماما كبيرا بالسياسة الا أنه كان صريحا فى خلافاته الاجتماعية ٠ وكان ايمرسون يشكو من « ان المجتمعات فى كل مكان تتآمر ضد الطبيعة البشرية لأفرادها » ويقول أن الفضيلة المحببة لها انما هى الامتثال والقبول ومن هنا « فان الانسان يأتى الآن الى العالم كعبد من العبيد يأتى وهو مشدود الى عشرين أو أربعين قرنا ٠ ان مثل هـذا الشخص لا يكون نفس شخصه ٠ بل عبد الزمن الذى لا يملك حـولا ولا قوة يحمـل على كتفـه دهـورا من الضيم والحيف ٠ وقد أصبح الحال سيئا الى حد أن مثل هذا الشخص لا يستطيع أن يحمل الآن ولأى مدة أخرى هذه الحبال وأن يبقى رجلا ٠ يجب أن تقوم ثورة ٠ دعوا الثورة تقوم ودعوا الانسان يقدم وهو يتنسم نسـيم الحرية على هذا الأرض يسير عليها وهو يحمل آماله وحدها ٠ لقد كان هذا العالم جديدا وربما كان المثل الأعلى يبدو ممكنا ؛ ولكن يبدو لى الآن انهم انخدعوا بأنفسهم وأنهم يعيشون حسب ما يريد غيرهم » ٠

وحسب ما يقول ايمرسون فان المتسامى يرفض أن يعيش حسب ما يريد غيره ؛ اذ أنه لا يسير الا وراء غرائزه هو نفسه ؛ واذا ما انتهى به ذلك الى صدام مع الكنيسة والدولة فان هذا يلحق اسوأ الضرر بهاتين المؤسستين ٠ وكان ايمرسون يصر على القول بأن « الرضا بالمؤسسات يدل على الافتقار الى الاحترام الذاتى » وكان يقول « أن أى انسان يريد أن يكون رجلا يجب أن ينشق عن معتقداته ٠٠ وليس هناك فى النهاية شىء مقدس اللهم الا سلامة عقلك » وذلك « لأن اسمى ما يتوق اليه الانسان أن يعول نفسه بنفسه فى غير حاجة الى هدايا أو الى قوى خارجية » ٠ وقد أقر ايمرسون بأن المتسامين « ليسوا مواطنين صالحين كما أنهم ليسوا أفرادا طيبين من أفراد المجتمع وأنهم يقومون بلا أى رغبة فى دورهم فى حمل الاعباء العامة والخاصة ؛ وكذلك فانهم لا يشاركون عن رضى فى أعمال الخير والانسان العامة ولا فى شعائر الدين العامة ولا فى مشروعات التعليم ولا فى البعثات الخارجية أو الداخلية ؛ كما أنهم لا يشتركون فى الحملة لالغاء تجارة الرقيق ولا فى مجتمع الاعتدال وضبط النفس ٠ وهم لا يحبون حتى الادلاء بصوتهم ( فى الانتخابات ) » ٠

ولكن هذا كان نتيجة لرفضهم التنازل عن استقلالهم الفكرى لأى عمل منظم من أى نوع حتى المؤسسات التى تقوم لخدمة أهداف قيمة ؛ كما أنهم لا يحنون رؤوسهم أمام سلطة أى حكمة مطبوعة • وكان مما لاحظه ايمرسون أن « بعض الكتب تتركنا أحرارا كما أن بعض الكتب الأخرى تجعل منــا أحرارا » ولكن معظم الكتب لا تستحق من المثقف أن يضيع فيها حتى أى وقت فراغ • وفى اشارة له للصداقة قال « أنا أفعل مع اصدقائى مثل ما أفعله تماما مع كتبى • أنا أحصل عليها حيثما أستطيع أن أعهدها ولكنى نادرا ما استخدمها • يجب أن يكون لنا مجتمع يقوم على شروطنا نحن أنفسنا • وسنعترف به أو نتخلى عنه بناء على أبسط الأسباب » •

وكان من المؤكد أن يسيىء مثل هذا التعالى الى اصدقاء الانسان • وقد اعترف ايمرسون لهذا قائلا •• « هذا صحيح » ولكنى لا استطيع أن أبيع حريتى وتوقى لانقذ احساساتهم » وقد اقتصر الأمر الهام على احتفاظ المــرء باستقلاله المجيد • وكان ايمرسون يخشى من أن تكون فلسفة التسامى قــد واجهت بعد أن عممت أفكارها خطر تصلبها وتحولها الى معتقد صحيح • قد يصبح عدائيا للفكر المستقل • وكان يقول « ان الرجل الذى أراه قويا وسيدا هو الرجل الذى يرفض كل تأييد خارجى ويقف بمفرده •• أنه الرجل الذى يعرف أن القوة أمر يولد مع الانسان ؛ وانه لا يصبح ضعيفا الا بعد أن يبحث عن الأشياء الطيبة من خارج نفسه وفى غير نطاقه ؛ حين يدرك هذا ينغمس بلا تردد فى أفكاره ويقوم من نفسه فى الحال ويقف بقامة مرفوعة متحكما فى كل أطرافه الأمر الذى يستطيع أن يقوم بعده بصنع المعجزات » •

ومع أن الكفاح من أجل الاستقلال الذاتى التسامى كان شاقا وطويلا الا أنه كان من رأى ايمرسون ( أنه اذا لم تستطع أن تصبح حرا فلتكن حرا بقدر ما تستطيع •

أما بالنسبة لهؤلاء الذين كانوا فى شك وفى تردد فقد كان ايمرسون يقول لهم أن القوى الخلاقة الواسعة والثقة الزائدة بالنفس لم تنبثق الا من توفير حرية التسامى وقد أكد لمواطنيه « ان قوى جــديدة سوف تظهر مع الاخلاد الى الثقة بالنفس مثل الرؤية الفكرية والقوة المعنوية والتمييز الجمالى والأعمال البطولية » وكان ايمرسون يصمم على القول « بأن كل انسان ليس

الا منهاجا جديدا وأنه يستطيع أن يقدم دائما أشياء جديدة وكان يقول « أن القوى التى تكمن فى الانسان قوى جديدة بطبيعتها ؛ وليس هناك أحد غير هذا الانسان نفسه يعرف ماذا يقدر هو على عمله ؛ ولكنه لا يمكن أن يعـرف ذلك الا اذا حاوله ٠٠ لقـد صفت العين ( فى وجه الانســـان ) حيث يمكن لشعاع من الأشعة أن يقع عليها الأمر الذى قـد يمكنها من التعــرف على خاصة هذا الشعاع نفسه « وقد اكتشف ايمرسون فى آخر المطاف أشعته الخاصة وكان يؤمن بأن على كل انسان آخر أن يفعل مثل ما فعله هـو اذا أراد أن يحيا فى حرية وفى تعقل ٠ والواقع أن عثور الانســان على مهنة تناسبه فى الحياة انما هو مفتاح لحريته الذاتية ٠ وكان ايمرســون يقول « ان كل انسان لديه الرغبة فى الحصول على القوة ليمكنه عمل شيء فريد من نوعه ؛ وان الانسان لا يمتلك قوة غير قوة هذه الرغبة « وما لم يعرف الانسان طبيعة مواهبه ومصالحه فانه يظل سجين الظروف وتصبح حياته ضعيفة ووضيعة ومزعزعة ٠ وعندما يكتشف المرء مهمته الفريدة فى الحياة ؛ وعندما يعزم على السير قدما لتحقيق أغراضه فانه عندئذ يكون قد وضع قدمه على بداية طريق الحرية ٠ وكان ايمرسون يقول فى هذا الشأن « أن هناك وجهة واحدة يرى فيها الانسان أن كل الفضاء قد انفتح له فيها ؛ ومثل هذا الشخص يتمتع بمواهب تدعوه فى سكون الى أن يتجه الى هذا الاتجاه حيث يبذل جهودا لا نهاية لها ٠ وهذا الانسان مثله مثل السفينة فى النهرفهو يسير بها ضد كل الحوائل التى تعترضه على كلا جانبيه فيما عدا اتجاه واحـــد حيث ازيلت منه كل الحوائل ويمضى فى طريقه فى هدوء وسكينة فوق أعمال كبيرة الى أن يصل الى البحر اللا نهائى » ٠

واذا ما عكف الانسان على عمله الذى اختاره لنفسه فانه يكشف عندئذ عن دخيلة نفسه ؛ ويروح ينمو نموه الطبيعى معبرا عن القوى وعن المعانى التى تكمن فى نفسه وهنا يمتلك الانسان « نفسه » ويحظى باحترام الجميع ٠ وكان ايمرسون يقول « دعوا من يمتلك نفسا أكبر من نفسى أن يسيطر على ؛ أما من يمتلك نفسا أقل من نفسى فانى أسيطر عليه بنفس السهولة » ٠ وكان ايمرسون يطالب الأمريكيين بفعـل نفس الشيء ؛ أى باختيار العمـــل الذى يناسبهم ٠ وكان يقول « أعمل عملك وعندئذ سأستطيع أن اتعرف عليك ٠ وقم بعملك ؛ وسيعمل هذا العمل عندئذ على تقوية نفسك ٠ وقد يمكن أن يصبح المرء الواثق من نفسه فى وقت من الأوقات السيد المطلق المسيطر المتسلط على ظروفه ؛ وأن يستطيع تعديل مجرى الاحداث حسب ما يريد ٠

## ايمرسون والارادة الحرة

وفى اشادته بالقوى الخلاقة التى ظن أنها تـــكمن فى كل الناس كان ايمرسون يتحدث فى بعض الأحيان كما لو كان يعتقد بحرية الارادة · وكان يصف الأمريكيين بأنهم « أصحاب ارادة حرة » وكان يعقد المقارنة بين ·· الارادة الأمريكية الحرة « والقصور الذاتى بآسيا ويصرح « بأن ليس هناك شىء حر ما عدا ارادة الانسان » ومع هذا فان ايمرسون لم يستخدم تعبير « الارادة الحرة » بدقة أكثر مما ذهب اليه جوناتان ادواردز ودانيل هوبيتى وصمويل كلارك · ولم يعمد ايمرسون فى الواقع الا الى التأكيد على الطبيعة النشطة التى كانت تتسم بها الثقافة الأمريكية ورفضها لمبدأ الخضوع الرقيق للمصير الأعمى ·

وأنه لحق ان ايمرسون أعطى فى بعض قصائده الانطباع بأنه كان يؤمن بالحرية بصورة مطلقة نوعا ما وقد كتب مرة » أنه اذا همس ( الواجب ) بصوت ضعيف موجها اليك أمرا من الأمور فان الشباب سيرد عندئذ بقوله ( سأستطيع أن أفعل ذلك ) · وهنا يبدو ايمرسون وكأنه يردد ما كان يقول « كانط » من « ان الاحتمالات تنطوى على القدرة ؛ وان الالتزامات المعنوية تستلزم الحرية للعمل كواجب ولو اراد الانسان أن يفعل العكس · ولكن ايمرسون لم يؤمن حقا بأن الانسان يمتلك هذا النوع من الحرية الحتمية ؛ ولم يؤيد مبدأ الارادة الحرة بأكثر مما ايدها ادواردز · والواقع أنه كان من العسير عليه أن يفعل ذلك فى وقت كان يؤمن ايمانا عميقـــا بعقيـــدته المتسامية · وكانت نسبة قوى الاستهلال العرضى لارادة الانسان تعنى تمزيق نسيج الأشياء المتماسك وادخال الغموض والالتباس والحوادث الى الكون وهو الغموض الذى يتعارض تمام المعارضة مع نظرته من زاوية وحدانية الكون التى نظر منها الى عملية الخلق · وقد وضعت الارادة الحـــرة حيـــاة الانسان تحت رحمة نزوات الأفراد وحطمت القوانين العامة العظيمة التى رآها ايمرسون تعمل فى كل مكان ؛ كما أنها سلمت الكون « الى الصدفة التى تجىء من فراغ بلا لون ولا صورة « واستبدلت الوحدة والتناسق بالفوضى والاضطراب · وقد كانت خشية ايمرسون وشكه فى فكرة الصدفة قوية تماما كما كان الحال مع ادواردز · وعندما كان ايمرسون يافعا كتب فى مذكراته ما لازمه من رأى طوال حياته اذ قال « ان من يعتقد أن الكون قد خلق بطريق

الصدفة ؛ وان الصـــدفة ستقضى عليه فى القريب • وانه لم يوجـــد هنا الا بمحض حادث سعيد وان ليس هناك ( عقلا ) غير مرئى قد خطط لتقدمه أو حدد نهايته سيشعر فى كثير من الأحيان خلال الساعات المظلمة من حياته التى تسودها السآمة أو الغم والضيق بأنه وحيد وانه يفرق تحت تقززه من عزلته غير المريحة • ان هذه الفكرة كئيبة قفراء من شأنها أن تحيل حـديقة الطبيعة العظيمة الزاهرة الى فلاة ؛ فكرة تعمل من وراء تجريد الأشـــياء والكائنات من الباعث والغاية والمنفعة الى تجريدها من كل عناصر الجمال •• ولكن أضيف الى هذا ( الكون ) ( حاكما عليما ) وهنا ستجد انك سكبت نفسا فى هذا الجمع القوى • وستجد نفسك وفى الحال بمأمن •• وسير الاحداث الذى كان مختل النظام ويمضى بطريقة عرضية سيصبح طريقا جليا آلهيا » •

وعندما شب ايمرسون عن طوقه كان يغتبط بتحويل الصدفة الى اتفاق وعرض • وفى عام ١٨٣٨ كتب فى مذكراته ما يأتى « قرأت اليوم قضية قتل مفزعة ؛ وهى قصة تملأ الانسان بالكآبة وبالهراوات وبالمشانق •• وبعـــد ذلك يكتشف المرء أنها عمل من أعمال الانتقام الدقيقة التدبير والذى أعد لهـــا من زمن طويل وفجأة تنقشع الكآبة وذلك لأن نور القانون ونور العلة والمعلول سيضيىء بدرجة من الدرجات » •

والواقع أن ايمرسون لم يحلم قط وهو يسطر هذه الكلمات أن علماء مثل جيمس كلارك ماكسويل سيبدأون فى الحال النظرية الجبرية التى نادى بها نيوتن والتى أقام هو وادواردز وباين عليها كثيرا من فلسفتهم • وقد وجد ماكسويل ، وهو عالم طبيعة بريطانى درس علم القوى المحركة للغازات؛ أن من المفيد أبعاد العلة الميكانيكية لأى معالجة احصائية من سلوك أعداد كبيرة من جزئيات الغاز على أساس نظرية احتساب كافة الاحتمالات • وكان على علم تام بالمضامين الفلسفية التى ستنتج عما كان يفعله ؛ وكان مما قاله بهذا الصدد « انه اذا كان تاريخ العلوم الحالى مختلفا واذا كانت القوانين العلمية المعروفة لنا جيدا قوانين يجب أن يعبر عنها بهذه الطريقة ؛ فان من الممكن أننا قد نعد وجود نوع معين من الحوادث الطارئة حقيقة ثابتة • وان ننظر الى مبدأ الضرورة الفلسفية على أنها مجرد سفسطة » •

وقد أمكن لايمرسون أن يتعلم شيئا عن القوانين الاحصائية فى أواخر

سنيه ؛ ولكنه مع هذا بقى ؛ شأنه شـــأن معظم معاصريه ؛ من أشد اتباع نيوتن ؛ وقد ظل منذ بداية رحلته الطويلة بين الآراء والأفكار حتى منتهاها يطرى « الضرورة السامية » ويرفعها فوق « الصدفة والحظ » . وقد ربط موضوع « الصدفة والحظ » بمبدأ الارادة الحرة .. وقد قال فى احـــدى المرات « اذا ظننا أن الانسان حر بمعنى أنه اذا حدث بصورة استثنائية واحدة أن سيطرت ثمة ارادة خيالية على قانون الأشياء فان ذلك يكون بمثابة يد طفل تحاول أن تسقط الشمس . واذا قدر لشخص ما أن يعطى نظام الطبيعة . فمن ذا الذى يستطيع أن يقبل هدية الحياة ؟ بكل تأكيد أن مثل هذا الشخص لن يكون ايمرسون . وكان يقول أنه « اذا لم نؤمن بأن هناك قانونا لأى حاجة أو ضرورة ؛ وان ليس هناك أى دافع للحرية المطلقـــة . فان علينـــا أن نهرع بعد أن ننتحر لنخرج من باب هذا ( المعبد ) المتمايل وكان من رأى ايمرسون أن عملية الخلق لن تنتهى ؛ وكان يقول ( أن ليس فى الـــكون أى مجال للصدفة ولا أى فوضى ؛ وان كل شىء يسير حسب نظام وترتيب معينين « وكان ينكر بشدة وجود حلقة ضعيفة أو مشروخة » فى السلسلة التى تضم الأشياء بعضها الى بعض . ومما قاله « أننا مقتنعون أن هناك خيطا يضم اليه كل الأشياء » وان كل العوالم مركبة ومنسقة فيه كحبات الخرز ؛ وان الناس والاحداث والحياة تظهر لنا بسبب هذا الخيط ؛ وهذه الأشياء تمر وتمر من جديد لكى نعرف الاتجاه ومواصلة السير فى هذا الخط . والواقع أن تصميم ايمرسون على القول بأن هناك « صلة قوية بين كل خفقة نبض ومبدأ الوجود » يستبعد بصورة جلية الاعتقاد فى حرية الارادة .

والتصميم على « الوهية الانسان » استبعدت هى الأخرى الارادة الحرة من فلسفة ايمرسون . وكان قلب نظرية ايمرسون ايمانها بأن القوة فلسفة ايمرسون . وكان قلب نظرية ايمرسون ايمانها بأن القوة الالهية التى يشار اليها بمختلف الاسماء مثل الله والروح العظيمة والروح الكونية والحكمة الرفيعة والقوة الكونية والضمير الكونى . انما تكمن فى الطبيعة وفى البشرية وأنها حمت نفسها فى قوانين العقل وفى قوانين الطبيعة . ويقول ايمرســـون « أن الانسان يشبه مجرى الماء الذى اختفى منبعه عن العيون وان وجودنا يحدث لنا من حيث لا نعرف . . أنا أكره أن أقر فى كل دقيقة أن هناك أصلا أكبر للاحداث من الارادة التى ادعيها لنفسى » .

وكان ايمرسون مثله مثل كولريدج وغيره من الخياليين الانجليز على وعى تام بأهمية التفكير الباطن فى الأعمال الخلاقة ؛ وكان ينظر الى « الباطن » على أنه مصدر الادراك الوجدانى والالهام الفنى ولكنه كان يعد عملية الخلق عملية تتم بالهام آلهى ؛ وكان يقول « ان الباطن ليس الا عملا دائما من أعمال الله نفسه » وكان ايمرسون لا يتحول عن اعتقاده بأن كل الأعمال الخلاقة هى فى تحليلها الأخير أعمال الله ؛ وأن الشاعر والكاتب الروائى والفنان والفيلسوف والعالم ورجل الأعمال كل سواء فى تلقى الالهام من « روح متراكبة » ؛ وهؤلاء الناس يشبهون سفينة غمرها طوفان آلهى أثروا كلهم من تداول العلم بكل أمر والتنزه عن المكان وارادة الفرد التى لا تمتلك أى قوة أصلية ذاتية هى فى المقام الأكبر عقبة تحول دون الخلق • ولميلها لأن تذوب فى الأعمال الخاصة النفعية فان الارادة الفردية تحول دون تدفق الفكر الالهى فى رؤوسنا الأمر الذى يتعذر معه توفير الصحة الحسنة والعظمة • ويقول ايمرسون « ان من يرى أنه قد أصبح بفضل الله مجرد قبو أو أنبوبة تمر منها الارادة الالهية يصبح عظيما كما انسانا يحمل له المستقبل ابتسامة خالدة ولا يفزع أبدا من مرور الزمن •• وأنا أريد أن أظل مستسلما للقوى الكبيرة التى اعترف بها مثلى فى ذلك مثل الترمومتر أو الساعة • وابتعادى الكامل عن هذه القوى جميعها ليس الا أمرا سطحيا •

وبالاختصار فان الارادة ليست مقيدة وحسب بل أنها أكثر من هذا عبئا ثقيلا أيضا • والاعتماد على النفس ؛ وهو الرسالة الأساسية التى وجهها ايمرسون للعالم ؛ صهرت نفسها فى الاعتماد على الله ؛ وكان الاعتماد على « الروح الكونية » هو الوسيلة الوحيدة التى يستطيع الانسان أن يستخلص من طريقها حريته وينتزعها من التقاليد الخانقة والعادات الضيقة الافق • والابداع والجدة والالوهية أمران مرتبطان أشد الارتباط بعضهما الى بعض فى نظرية ايمرسون عن التسامى ( النظرية الترانسندنتالية ) كما أن عملية الخلق ارتبطت فيها بالاستسلام •

وكان رأى ايمرسون فى عملية الخلق رأيا كاملا وبلا عيب فى بعض الحالات • وقد أكد عدد من الفنانين ؛ والعلماء أيضا ؛ على أهمية تناول وقوة الحفظ وعددها شرطا من شروط العمل الخلاق • وكانت الأفكار تأتى لجوته « كضيف أجنبى » راحت تتناثر وتنبثق بعدها « مثل ابناء الله

الأحرار » . أما بالنسبة لنيتشه - وكان من أشد المعجبين بايمرسون - فان الأفكار « تومض كالبرق » و « بدون حرية كاملة للاختيار » أما بالنسبة لموزار « فانى لا أعرف متى ولا كيف تأتى ( هذه الأفكار ) ، كما أنى لا أستطيع أن أدفعها على المجيىء وأنه لحق أن المحللين فى القرن العشرين ؛ مثل فرويد ؛ كانوا ينظرون الى العمل الخلاق على أنه عمل لا يمكن تفسيره اطلاقا ؛ ولكن جورج برنارد شو كان قريبا من رأى امرسون فى هذا الأمر عندما صرح بأن الكتاب « ليس الا آلة فى قبضة التقدم الخلاق « وكان امرسون ينظر الى الانسان الخلاق على أنه « مجرد نفق أو انبوبة » تنساب منها القوى الالهية كلما هيأ نفسه لتلقيها .

أما بالنسبة لكيف تتفتح بعض العقول للنورانية الالهية وكيف تتغلق بعض العقول الأخرى فقد كان موضوعا لم يجد له امرسون جوابا ؛ وكان يقول « أن كل ما نستطيع أن نؤكده أن الله يعطى ويمنع ؛ ولا يمكن لنا أن نوضح كيف ولماذا » .

ويقول امرسون « اذا قلت أن ( تقبل الرؤيا هى الأخرى عمل من أعمال الله ) فانى لن أحاول أن اخترق المجهول بل سأعترف بقوة حجتك . واذا سألت .. كيف يمكن وضع أى قواعد للحصول على نعم عظيمة رائعة مثل هذه ؛ فانى لن أقول أكثر من أن التماس هذه النعم والتوسل اليها ؛ طالما كانت هناك حياة ؛ أمر لا يمكن تقبله أبدا . وهذه النعم تتودد الينا وتستعطفنا بلين ورقة ؛ وهى تأتى الينا من كل مادة وجسم فى الطبيعة ومن كل حقيقة من حقائق الحياة ومن كل شاردة فى عقل الانسان . والشرط الوحيد الذى يصاحب نعمة الحق هو حسن استخدامها » .

ونظرية امرسون نوع من أنواع فلسفة ادواردز التى تحولت الى أغراض دنيوية . وقد أصبح الفضل المقتصد الذى بشر به ادواردز الهاما خلاقا فى فلسفة امرسون كما أصبح الكفاح من أجل الخلاص بحثا وراء الاستقلال الفكرى والفنى . وأكثر من هذا فقد تشابه الفرد المستقبل ذاتيا لدى امرسون بالفرد الذى انتخبه ادواردز ؛ فقد حقق هذا الفرد كيانه ووضعه بفضل الله وحده .

ومع أن امرسون كان يعتقد بأن القوى الخلاقة التى تحيىء وتنشط الانسان والطبيعة هى قوى الهية فى المقام الأول الا أن هذا لا يعنى أنه كان قدريا ٠ وقد ميز امرسون ؛ مثله مثل ادواردز تمييزا دقيقا بين الصلة الضرورية والمثمرة للأحداث وبين تدبير الأمور التعسفى على يد قضاء وقدر أعمى ٠ وكان امرسون لا يتقبل الايمان بالقضاء والقدر الشرس أو بالقسمة والنصيب وذلك لأنه كان يعد هذا من قبيل الخرافات مثلها مثل اعتقاد الطفل بأن نثر الملح أو تلاوة دعاء الرب من نهايته الى مبتداه لا من مبتداه الى نهايته أمر يستوجب العقاب وأنها « لا توجد أبدا فى طبيعة الأشياء وانما فى ارادة تعسفية » وقد أوضح ايمرسون أن المتواكل يظن أن الأحداث تخضع « قانون لا يلاءم الانسان يظل ساريا الى النهاية ولا يخدمه الا اذا تصادف وسارت رغباته فى نفس الطريق ؛ ويستطيع أن يسمعه اذا تضاربت رغباته معه بدون أن يهتم بما اذا كان يخدمه بذلك أو يسحقه » ٠ وعلى عكس ذلك فقد اعتمد الرجل المتسامى بأنه اذا فكر بنو البشر مليا فانهم يستطيعون أن يخضعو القوانين الكبيرة التى تحكم الخليقة وأن يستخدموها لخدمة أهدافهم الخاصة ٠ ولكى يكون الشخص قدريا يجب أن يعتقد أن تخيلا عظيما هو الذى يتصرف فى العالم وان كل ما يحاوله الانسان ينتهى فى النهاية الى لا شىء ٠ ولكى يكون الشخص متساميا فان عليه أن يؤمن أنه بانصياعه الى اللانهائية فانه يستطيع أن يطلق القوى الخلاقة العظيمة التى تكمن فى نفسه ليشكل العالم ٠ وقد وجه ايمرسون اللوم لجوته الذى كان يعجب به لأنه تقبل مبدأ الجبرية عديم القيمة ٠ وقد وصف بعد ذلك شعر جوته بأنه « كان شعرا يبدو ظاهرة كأنه سلسلة فوقها طلاء من ذهب تخفف وتلطف من مصيره ولكن عروس الشعر والأدب لا تمحص أبدا هذه الانغام الصارخة التى تتسبب فى هز الشمس والقمر والتى تبدد بايقاعاتها المريعة كل هذه الشبكة الحديدة التى تغلف الظروف وتلغى السموات القديمة والأرض القديمة أمام الارادة الحرة أو الوهية الانسان » ٠

وقد أكد ايمرسون أن الالوهية التى تكمن فى الانسان هى التى تمكنه من الارتفاع بنفسه الى ما فوق الشبكة الحديدية التى تغلف الظروف والتى تدفع الشمس والقمر الى أن يهتزا ٠ وقد وضعت الحرية المساوية الرجل فى وضع اسمى من القدرية ؛ وهى التى حررت روحه من الظروف الغاشمة ٠

## الحرية المتساوية والاصلاح الاجتماعى

ولكن الحرية لم تكن بالنسبة لايمرسون أمرا روحيا محضا ؛ وقد اعترف بأن لهـا بعدين ؛ بعدا نظريا وبعدا ذاتيا ؛ كليهما ذى أهمية بالنسبة لبنى البشر . وبرغم أنه اعتبر تحرير نفس الفرد من طغيان الظروف أهم هدف لنظرية التسامى ( الترانسندنالية ) . الا أنه ادرك أنه لكى تنجح هذه النهاية وتزدهر فان من الضرورى أن تكون هناك تدابير اجتماعية تسمح للناس بأن ينتهزوا الفرصة ليعربوا عن أعمالهم الخلاقة . وبالاختصار فقد كان ايمرسون ليبراليا مدنيا ؛ مثل باين ؛ ولما ندد روفوس كوت بفكر الحقوق الطبيعية التى تضمنها اعلان الاستقلال بأنها « عموميات براقة » انتهى الى ما كان يمكن لباين أن ينتهى وذلك عندما قال روفوس « بل قل أنها بالاحرى عمومية الحضور البراقة » وقد عد ايمرسون الليبرالية المدنية ( وهى حرية الخطابة وحرية الصحافة والمعتقدات والاجتماع أمرا ضروريا للحضارة والمدنية . ويبدو أنه فكر فى وقت من الأوقات فى أن يكتب بحثا عن أصلها وتطورها عبر التاريخ . وقد كتب باتفاق تام عن شوق المتزمتين الانجليز والأمريكيين خلال القرن السابع عشر للحرية المدنية ؛ واشاد بجورج فوكس ؛ وهو من اتباع الأصحاب ( كويكرز ) ؛ بوصفه محبا لليبرالية ؛ واحتفل بأليجا لوفجوى بوصفه شهيدا من شهداء حقوق حرية الخطابة والرأى ؛ وعمد فى كتابه ( خواص الانجليز ) الذى نشره عام ١٨٥٦ الى ازجاء المديح للبريطانيين لاسهامهم فى تطوير الليبراليات المدنية . وكتب أيضا وباطناب عن الكفاح البطولى الذى قـام به جون ملتون من أجل الليبرالية المدنية والكنيسة والأدبية والعائلية .

وكان أكثر الانتهاكات للحرية المدنية فظاعة أيام ايمرسون بطبيعة الحال مسألة استرقاق الزنوج . وقد أشار فى مذكراته التى احتفظ بها أيام أن كان يدرس فى هارفرد الى ( عما اذا كان بمقدار أى شخص أن يستمر فى احتجاز الحرية التى سلبها اياه شخص آخر » وبعد أن درس الحجج التى سيقت لتأييد الاسترقاق ببعض التفصيل ( الى الحد الذى عالج به فكرة أن الزنوج بكيفية ما أقل مستوى من البيض ) قد قرر ايمرسون ( أن تقبل الصلاحية الكاملة لأسوأ نظام على الأرض يقدم بأى حجة مزخرفة يعد لأول وهلة تهجما على ( العقل ) وعلى ( الذوق السليم ) وليس فى وسع أى

مغالطات مهمـــا كانت ذكية بارعة أن تدفع العقل المســـتقيم الى غفران الاسترقاق » · ولما كان ايمرسون يعالج فى نفس الوقت مسألة الارادة الحرة فقد اضاف الى ماسبق أن قال أن على المرء والحـالة هذه أن يعـــاد حسن الاسترقاق سواء آمن هذا الانسان بالارادة الحرة أم لا · وكان مما قاله أن هناك نزاعا قديما سوف لا يهدأ كلية لا الآن ولا فى المستقبل عما اذا كان عقل الانسان أداة حرة أم لا · ويجب على مؤيدى كل طرف أن يشـــعروا بالخزى من مجرد الاشارة الى النظرية التى تقول ان انسانا ما قد يفرض عبوديته على أخ له · واذا كان مثل هذا الشخص حرا هو نفسه ؛ وكان استعباده أمرا يسيىء الى صفات الله ؛ فانه لواضح أن يكون من العقوق الصارخ أن يعمد هذا الانسان الى سلب نفس الحرية من أخيه · أما اذا لم يكن هذا الشخص حرا فان وحشيته غير الانسانية ستستمد عندئذ أصلها من خالق كل الضروريات » ·

وكان مما لم يصدقه عقل ايمرسون ؛ وما لم يصدقه عقل لنكولن فيما بعد ؛ أن يرضى الاله العادل باسترقاق البشر ؛ ومع هذا فقد ظل الى عام ١٨٤٠ بعيدا بصورة كبيرة عن حركة الغاء تجارة الرقيق ·

وكانت وجهة نظر ايمرسون فى مسألة الغاء تجارة الرقيق ( خاصة فى السنوات التى كان يفسر فيها مبادىء الاعتماد المتســـامى على النفس بالحاح متزايد ) هى نفس النظرة التى كان ينظر بهـــا الى جميع حركات الاصلاح الاجتماعى ؛ وقد أبدى تعاطفه العام مع أهداف هذه الحركات ولكنه مع هذا لم يشعر قط أن مواهبه الخاصة يمكن أن تعمل فى المجال السياسى أو المجال الاجتماعى وقد شرح هذا بقوله « ان لكل انسان عمله الخاص ) وليست الموهبة الا النداء لفعل ذلك · وكما تعلم ايمرسون من تجاربه الصعبة فقد كان عمله منصرفا الى أن يكون شاعرا ونبيا لا قسا ولا مصلحا ؛ وكان يرى أنه اذا سدد طاقته فى العمل الاجتماعى فانه يكون قد حدد الخط لحركة التعبير الحر عن مواهبه الفريدة الخاصـــة التى وهبها الله له · وكان يرى ( ان خضوع الانسان لعبقريته الذاتية هو الأثر المحرر الوحيد · وبخضوعه لعبقريته ومواهبه وحدها النشاط البالغ الحرية الذى يمارســـه بالطريقة القانونية المتاحة له يستطيع الملاك أن يظهر للانســـان وأن يأخذه بيده الى حيث يخرجه من عنابر السجن · وقد شرح ايمرسون موقفه للمصـــلحين

العاملين لخير الانسان بصراحة عندما قال ( أننا قد لا يمكن أن نعطى أكثر مما تمليه علينا نوايانا الحسنة · لكل منا شئونه الخاصة ؛ ومواهبه الخاصة التى تربط بينه وبين عمله المعتاد · نحن لا نستطيع أن نضحى بحياتنا فى سبيل قضية المدين أو الرقيق أو الصعلوك كما يفعل الاخرون « الواقع أن الفتور المبدئى الذى واجه به ايمرسون اصلاحات مثل الغاء تجارة الرقيق قد نشأ أيضا من خشيته من أن يؤدى انضمامه الى قضية منظمـة الى ضياع استقلاله الفكرى · يقول ايمرسون · ( أن كل قضية » كما هى مسماة سواء اختصت بالغاء تجارة الرقيق أو الاعتدال وضبط النفس أو القضية الخاصة بمذهب كالفن أو أنصار التوحيد ؛ تصبح على وجه السرعة حانوتا صغيرا حيث تتحول السلعة مهما كانت فى أول أمرها رقيقة أو لطيفة الى قطعـــة حلوى يمــكن حملها ومريحة يمكن بيعهـــا بالقطاعى بما ينـاســـب جمهرة المشـــترين ·

وقد عول ايمرسون على الا يكون رجل أى منظمة مهما كان قـــدرها ومكانتها ·

وعلى كل فان السبب الرئيسى الذى دعا ايمرسون الى أن يتقاعس عن الانضمام الى حركات الاصلاح كان اعتقاده بأن الاصلاح الصحيح انما يأتى من دخيلة نفس الانسان وليس من التغييرات التى تطرأ على بيئة الانسان الخارجية · وقد صرح بأنه لا يمكن لأى تغيير فى الظروف ان ينصـــلح أى عيب فى الاخلاق · وأكد ايمرسون أن الثورة الفرنسية التى توقع منها الرجال ذوو النوايا الطيبة الكثير فشلت فى النهاية فى احداث أى تغيير فى قلوب الناس ؛ وكان يرى أن التقدم الاجتماعى كان السبب لا العلة ؛ فى التحسن المعنوى · وبدا لايمرسون أن نمط الحرية الذى راح المصلحون يناضـــلون من أجله ؛ وهو التحرر من القيود المصطنعة التى فرضها المجتمع على أفراده · لم تكن الا مجرد حرية سلبية ؛ فقد يستطيع الانسان أن يحقق حرية من هذا النوع ولكنه يبقى مع هذا مفتقدا بصورة كلية للاعتماد الجرىء على النفس وكان ايمرسون يرى أيضا أن ليس هناك شىء ( أكثر مدعاة للاشمئزاز من المطالبة الثرثارة لحرية العبيد كما يفعل كثير من الناس ؛ والخطأ الكبير الذى يكمن فى الحرية التى تزخر بها بعض الديباجات الورقية مثل اعلان الاستقلال ؛ أو الحق القانونى لهؤلاء الذين لم يجرأوا قط على أن يعمـــلوا

فكرهم أو يقوموا فى الادلاء بأى عمل بأصـــواتهم فى الانتخابات · وعلى عكس هذا فان أى شخص قد يكون مقيدا بالســـلاسل ولكنه قد يستطيع أن يحقق فى داخل قلبه استقلالا ذاتيا روحانيا حقيقيا قد يفتقده الرجل الحر · وقد تساءل ايمرسون مرة « هل يعد القيد الحديدى قيدالا ينكسر ؟ وكان يظن أنه كان فى امكان العبد ذى المبادىء الرفيعة أن « يتمتع بحـرية تجعـل من حرية سيده عبودية » وفى محاضرة له عن « الزمان » القاها عام ١٨٤١ كان ايمرسون فظا بل وحشيا فى التعبير عن انفعاله بسبب الاصلاحات المباشرة الوحيدة التى كانت تستهدف ازالة العقبات التى كانت قائمة أمام حرية الناس فى العمل ؛ وكان مما قاله يومذاك « ان المصلحين يقرون بوجود الحيـــاة الداخلية ولكنهم لا يثقون فيها ويستبدلونها بوسائل خارجية مبتذلة · أنهم لا يستندون تماما على تلك القوة التى يكسبون بها شخص الى قضـــيتهم ؛ أو على المبدأ ؛ ولكنهم يعتمدون على الناس وعلى الجماهير وعلى الظروف وعلى المال وعلى الاحزاب ؛ أى أنهم يعتمدون على الخوف وعلى الغضب وعلى الكبرياء » ·

أما عن موضوع الرقيق فقد قال « ان الشخص الذى اشرب قلبه حب الخير للبشر والذى يتوعدنا انما يمتلك الرقيق هو نفسه وذلك فى كل كلمة ينطقها وكل نظرة يلقيها · هل بمقدوره أن يحررنى ؟ وهل بمقدوره أن يحبنى ويشجعنى ؟ أنه فى ولاية جيورجيا أو ولاية الباما ؛ بما فيهما من قوانين دموية خاصة بالرقيق ؛ واللتان تزحفان الى شواطئنا الشمالية الشرقية ·· كم يبدو تافها هذا الجدل الذى يثيره المؤيد لالغاء تجارة الرقيق عندما لا يهتم الا بمجرد ظروف العبد · أعطوا العبد أقل قدر من المشاعر الدينية وسيصبح بعدها غير عبد أنتم العبيد · ان العبد فى مذلته لا يشعر فقط بسموه وتاليه ولا يحس بأن قدرا كبيرا من حالته المؤسفه ليست الا أمرا صغيرا زهيدا زائلا ؛ بل انه يجعلكم أنتم أنفسكم تحسون بذلك · هذا العبد هو الســيد · والمبالغة التى يتحدث بها شبابنا عن أخطائه هى الصـــــفة التى تميزه عن غيره · والشىء الذى لا ينظرون اليه على أنه شىء تافه يظنون أنه لم يكن تافها بطبيعة الحال ( لبومباى ) ·



وقد كان أقصى ما وعد به ايمرسون أن يمتنع عن السخرية بعمــــل المصلحين ووضع عقبات فى طريقهم كما تفعل الصحافة الشعبية · ان الظروف

الاجتماعية الجائرة تحقر من الروح الانسانية · الأمر الذى عرفه باين من قبل· وتعارض هذا النمط الرفيع المستوى من الاعتماد على الذات الأمر الذى اذا أريد للناس أن يتقبلوه لم يكن الا فرضا لم يكن أيمرسون فى ساعته تلك مستعدا لأن يسلم به · وكذلك لم يدرك أن كلماته القارسة قد تكون حجر عثرة وضعه فى طريق الحركة المناهضة للرقيق تماما كما كانت تفعله أجهزة الرأى والتأثير المعادية بصراحة وعلانية · وقد شعر ايمرسون بوصفه متساميا معتمدا على نفسه باضطراره الى أن يظل مخلصا لنزعاته ، وقد صرح بأنه لن يتزعزع عن موقفه الا اذا تلقى اعلا الأوامر ، وكان يرى أن الحركة المنظمة المعادية لتجارة الرقيق لم تنبثق من مثل هذه الأوامر العالية · وقد صرح مرة عام ١٨٣٠ بأن انصار الغاء تجارة الرقيق يتسمون فى الحقيقة بخبل بسيط ، مثلهم فى ذلك مثل أهل الفراسة وغيرهم من الرجال والنساء الذين يتمسكون برأى واحد من الآراء ، وان الواجب أن يعاملوا معاملة طيبة ولكن بدون أن يؤخذوا مأخذ الجدية · ويبدو أن الواحد منهم استطاع أن يحرر العبيد باعطائهم كتب « ابكتيتس » ليقرأوها ·

وقد جاء وقت قام فيه امرسون بتعديل موقفه ازاء الاصلاح وذلك عندما لم يتخل فقد عن تساميه المتعالى ازاء الغاء تجارة الرقيق بل عندما اشترك شخصيا وبصورة عميقة فى الكفاح المناهض للاسترقاق · ولم يحتمل أيمرسون خلال السنوات الأولى من حياته كشاعر وكاتب ومحاضر حين كان يسعى جاهدا الى أن يحدث فى قلوب الناس ثورة متسامية أن يتقبل الحرية التى كان المصلحون يسعون لتحقيقها على أنها حرية محدودة وممكنة بل حرية خطيرة · وكان يشعر ، تماما مثل ونثروب وبيرك ، بأنه اذا تمتع الناس بقدر كبير من الحرية يستطيعون معها أن يفعلوا ما يريدون فانهم سيتصرفون بصورة كبيرة من الحرية تجعلهم يفعلوا ما يريدون فانهم سيتصرفون بصورة مثيرة للسخط · وفى كتابة ( خواص الانجليز ) تحدث بانفعال عن « الرجل القصير النفس · الذى يفسر الحرية على أنها الحق فى فعل ما يريده والذى يرتكب الأخطاء لكى يحس بحريته · ويظن أنه يرضى ضميره بتصميمه على فعل ذلك » ·

والواقع أنه كان هناك حرية أكثر نبلا من تلك التى كانت تبيح للانسان أن يفعل ما يريد الأمر الذى كان يمكن أن يهبط الى حالة من الانحلال ، وكان

ايمرسون يعتقد أنه كان عليه أن يقوم بمهمة التبشير بمثل هذا النوع من الحرية تلك الحرية التى يمتلكها الانسان عندما يحرر نفسه من خضوعها للبواعث والنزوات الشخصية والشهوات غير المهذبة ويسمح لنفسه أن تحيا وتنتعش باسمى مبادىء الصدق والحق · وكانت الحرية الأخلاقية هى أولى الحريات التى آمن ايمرسون بها تماما كما فعل المتزمتون مثل جون ونثروب قبله بقرنين من الزمان · وكما فعل ونثروب فقد وضع ايمرسون الحرية الايجابية « فى عمل الخير واشاعة العدل والانصاف والتمسك بالأمانة · فى وضع اعلا من الليبرالية السلبية التى تبيح للانسان أن يفعل ما يحلو له بدون أى قيـــد خـــارجى ·

وطالما ردد ايمرسون الحديث أيام أن كان فى خـــدمة الكنيســـة عن الحرية التى تنجم عن السلوك العفيف · وفى عظة له ألقاها على المترددين على الكنيسة عام ١٨٢٨ قال ان الاتجاه الذى تحدده النفس والأوامر التى تصدر عنها تتشكل من تحرير الانسان نفسه من نير الاحساس الدنىء والعــواطف المسعورة والبواعث الطائشة ومن اخضاع شهوات الانسان لرقابة العقــل وكان مما قاله فى عظة أخرى ألقاها عام ١٨٢٩ أن الحرية الحقيقية تطــابق الفضيلة · وقال « ان ميولنا وخوفنا ومحبتنا تعرقل طريقنا وتحرمنا من ليبراليتنا » فالرجل الطماع والنهم والانتهازى والمتمسكون بعاداتهم فى خجل، والمتباهى بنفسه ، والحقود ، كل واحد من هؤلاء يعيش رهن عواطفه فى عبودية لا فى حرية · ولكن امرسون أقر بأنه ليس هناك انسان يتمتع بحرية كاملة ، وان كل الأعمال الفاضلة ليست لا اقترابا دائما من الحرية الصحيحة· وفى عظة لايمرسون ألقاها عام ١٨٣١ عن « الحرية » قال ان الرذيلة عبودية والخير حرية · والخير يعتق الارادة من عبـودية الخوف والمصـلحة الذاتية والهوى ــ والخير هو الذى يدفع المرء الى اختيار ما يراه حقــا · والانسان والانسان ينصاع لقانون الأخلاق لا على أنه خادم له بل على أنه وليده · وهو حين يفعل ذلك انما يفعله عن حب وبروح من الاختيار وقد اقتبس ايمرسون ما جاء فى الانجيل من « أنه حيثما وجدت روح الرب وجدت الحرية » كما كان يحب أن يقتبس من انجيل يوحنا قوله « انك ستعرف الحقيقة وهذه الحقيقة هى التى ستجعلك حرا » ·

وقد استمر ايمرسون فى اعتقاده حتى بعد أن أصـــــبح متسامنيا أن

الليبرالية تأتى من داخل الانسان وأنها تصاحب الادراك الحسى بالحقيقة والخير وكان يقول « ان الروح التى تسمو على الهوى والعاطفة تقر بالذاتية والمسببات الداخلية وتحس بالوجود الذاتى للصدق والحق ، وتهدىء من نفسها بمعرفة أن كل الأمور تسير فى الطريق السليم » وقد اعترف ايمرسون بالنقص الواضح من أنه « طاعة اختيارية وحرية تقتضيها الضرورة » وان هذا كان ما يطالب به · والواقع أن الأمر الذى كان يتوق اليه كان تحرر الانسان من « الذات الذليلة » التى تبقى الانســان فى عبوديته لخصوصياته والتى تود الخضوع « للذات الأعلى » للانسان التى تدرك وتفهم القوانين الكونية ·

ويقول ايمرسون « ان الليبرالية ليست شيئا رخيصا ابدا · وقد جعلت الليبرالية صعبة لأن الحرية من منجزات الانسان وكماله ··· وعلى هذا فان الواجب التغلب على جبال المعاناة والمصاعب ومواجهة المحن القاسية ومعالجة خديعة الاغراء والاخطار بواسطة احتواء المصائب ليستطيع الانسان أن يقيس مع كل هذا درجة قوته قبل أن يجرؤ على القول ·· أنا حر » ·

وفى ضوء هذا أصبحت الحرية المتسامية والاعتماد على النفس والاعتماد على الله والفضيلة ألفاظا تعاقبت فى فلسفة ايمرسون · ويقول ايمرسون « أنا حر فى أن أقول الصدق وأنا حر فى أن أعمل بحق وعدل ، ولكنى لست حـرا فى أن أقول كذبا · وأنا أريد أن أحطم كل قيد حيثما وجد فى العالم ممـا يعوق أخى عن فعل ما يراه بعد أن أعمل تفكيره » وقد صرح بأنه اذا أدرك أى شخص بأنه « ليست هناك ليبرالية بل ان الذى يدفعه الى فعل الخير انما هى ارادته المنيعة فسيجد أمامه فورا بعض العون وبعض الحلفاء ، وذلك لأن نظام الكون يقف الى جانبه » · والواقع أن ايمرسون لم يشــك لحظة أن عالمه ( الذى يبحث عن غاية الطبيعة ) كان يقف دائما الى جانب الانسان الحر ، ولكنه أصر مع هذا على أن أى انسان لا يصبح حرا الا اذا نفذ مظاهر الأشياء الخداعة الى النظام الأخلاقى الذى يكمن تحتها واستسلم لقوانين هذا النظـام عن طواعية ·

والواقع أن الحرية الايجابية التى احتفى بها ايمرسون لم تشع بين الشعب الأمريكى · وفى حين أقر معظم الأمريكيين ، تماما كما فعل باين ، بان ممارسة الحرية يجب أن يصاحبها فرض قيود أخلاقية ، فانهم كانوا يميلون

الى أن يكونوا حريصين فى أن يشهدوا الحرية بتغلب الانسان على نفسه الذليلة أو امتثاله لقانون أعلى · وكانوا على وجه الخصوص يتطلعون باحتراس الى المدافعين عن الحرية الايجابية عندما اعلنوا بازدراء أن عدم وجود أى اكراه على الانسان يعد صورة سلبية من الحرية ذات مستوى أدنى · وكانوا يحاجون بقولهم ان الفضائل شيء والحرية شيء آخر ، وكانوا يتساءلون عن السبب الذى يدعو الى الخلط بين المسائل الهامة من طريق المساواة بين الاثنين · وقد أحسوا بأن ونثروب كان يسعى ليجد مبررا لرقابة أصحاب السلطة على الناس عندما رفع الليبرالية الايجابية على الليبرالية السلبية ، وقد فعل جون كوتن نفس الشيء عندما أبلغ روجر وليامز أن « ليبرالية النفس » قد تودى بالانسان الى أن يذنب فى حق ضميره هو نفسه وان يطيح بحريته مقابل أن يتقبل ارادة الله · أما بالنسبة للجدل الذى أثاره جوناتان بوشر ، وكان قسيسا محافظا أيام الثورة الأمريكية ، من حيث أن « الليبرالية تنطوى على التبعية لقانون » فان الناس فى أمريكا لن يجدوا اليبرالية الحقة الا فى الخضوع للملك فقد رفض معظم الأمريكيين ببساطة حمل هذه الكلمات محل الجد ·

وكان ايمرسون على حق بالتأكيد فى اعتقاده بأن العبودية للنزوات الضيقة والنفعية يمكن أن تحد بصورة فعالة من استقلال الفرد الذاتى ، وبأن اغراق المرء لميوله فى احترام ذاته فى نظرة أكبر وأكثر سخاء أمر يمكن أن يضاعف من احتمالات النمو والتحرر الشخصى · ومن حسن الحظ فان ايمرسون لم ينظر الى الحرية الايجابية طوال وقته على أنها كانت بمعزل عن الحرية السلبية ، فقد كان يتمسك بطريقته الخاصة بالحقوق الطبيعية كما كان يتمسك بها باين ، وكذلك فانه لم يعن له قط بطبيعة الحال أن يلصق « الحرية الأكبر » بالدولة أو الكنيسة أو بنوع من أنواع السلطات الاجتماعية المتضامنة كما فعل المحدثون من أنصار السلطة الذين كانوا يتفننون فى استخدام الألفاظ دون التعمق فى جوهر الليبرالية · وأكثر من هذا فقد انتهى به الأمر الى أن يزيد ادراكه لأهمية الليبرالية المدنية لنمط الاستقلال الذاتى المعنوى الذى كان يتوق الى أن يتمتع به الانسان ، والى أن يصر على عدم استغناء الحرية الخارجية لتحقيق الحرية الداخلية وتفاعل الحريتين بعضهما مع بعض ودوام الاتصال بينهما ·

## الحرية والقضاء والقدر

وقد بشر ايمرسون أيام الطيش والجهل التى ظهرت فيها نظرية التسامى بمبدأ الحرية التى تعتمد على الذات والكمال الأخلاقى بقوة وثقة وأبدى ازدراءه للاشخاص الذين اعتقدوا بأن فى امكان الظــروف أن تتغلب على الانسان ٠ وكان يقول بتعال « أنتم تظنون اننى ابن ظروفى ٠٠ اننى أنا الذى أخلق ظروفى » وكان يقول « بأن على الانسان أن يحمل نفسه أمام كل معارضة كما لو كان كل شيء عداه شيئا اعتباريا وسريع الزوال » واذا استطاع الشخص أن يتشاور مع قدراته الداخلية ويحافظ على نفسه بشجاعة ، فانه يستطيع أن يجعل الحاجة التى يبرزها أمرا يحس به الغير ، وان يخلق الذوق الذى يحكم به عليه الناس ، وان يثير الاحتياجات التى يستطيع أن يعين على سدها ؛ وفى عام ١٨٣٦ أعلن امرسون فى كتاب ( الطبيعة ) ان الانسان الحر يستطيع أن يأتى بالمعجزات « وانه يستطيع أن يخضع لارادته لا بعض الأحداث الخاصة وحسب ، بل الطبقات الكبيرة ، وحتى مجموعة تسلسل الحوادث وبهذا يمكنه أن يخضع كل الحقائق لشخصيته ٠ والطبيعة عامل وسيط كامل ، فهى توجد لتخدم وتعين ، وهى تتقبل سيطرة الانسان بحلم ودعة ؛ مثلها مثل الجحش الذى ركبه ( المسيح ) ٠ والطبيعة تقدم للانسان كل عوالمها ومقتنياتها مثل المادة الخام التى يمكنه أن يحيلها الى شيء نافع ٠٠ ومملكة الانسان تتسع بين الأشياء أكثر وأكثر مع كل فكرة الى أن يصبح العالم فى النهاية مجرد ارادة أمكن استيعابها ؛ أى صنو الانسان » ٠

وعلى كل فقد أصبح ايمرسون بمرور الوقت أقل حماسا للآمال التى وضعها فى الانسانية ؛ وبدا يفكر فيما اذا كان يسيرا على الانسان كما كان يظن فى وقت من الأوقات أن يبنى عالمه هو نفسه ؛ وأصبح فى حالة تزايد فيها تأثره بالحقد والمقارنة حتى بالعناد المحض ؛ الذى يواجه المرء فى حياته اليومية ٠ ومع ذلك فلم يحدث أن ضعف ايمانه بالتسامى ؛ وظل متفائلا هادئا بكل الأشياء على وجه العموم حتى آخر أيامه ، ومع ذلك فقد بدأ يخفف من غلواء تفاؤله تدريجيا برؤية للعالم أكثر قسوة وأشد عنفا وباعتراف بالحدود والقيود التى تفرضها الظروف على استقلال الانسان الذاتى ؛ ومع أنه لم يتخل قط عن اعتقاده بأن الانسان الخلاق يمكنه أن يأتى بالمعجزات ؛ الا أنه آمن أكثر وأكثر بقوة الظروف فى أن تعوق وان تطيح برغباته وخططه ٠

وقد أعلن أن هناك « تنافر هائل » بين قوة الانسان وقوة الظروف ٠ وكانت الحرية تطوق الضرورة فى معركة لا نهاية لها ٠ وقد أقر ايمرسون بصراحة فى بحث أعده عن « القضاء والقدر » واستهل به كتابا ضمنه أبحاثا عن ( تدابير الحياة ) نشره عام ١٨٦٠ « بأننا ظننا فى وقت من الأوقات بأن القوى الايجابية هى كل شئ ؛ ولكننا نعلم الآن أن القوى السلبية ؛ أو الظروف ؛ هى نصف الأشياء ٠ والطبيعة ليست الا الظروف الظالمة » ٠

وقد عكس بحث ايمرسون عن القضـــــاء والقدر تفكيره الناضج فى الموضوعات العظيمة التى كانت تسترعى انتباهه منذ أيام دراسته الجامعية ٠ واذا كان تفكيره قد تركز حول فكرة القضاء والقدر ( وكان يعنى بها الضرورة السببية لا القضاء والقدر التعسفى ) فقد اهتم أيضا بمقاومة الانسان للقضاء والقدر وراح يفصح بتفاصيل أكثر مما قيل من قبل عما كان يعنيه بالحرية فى أمجد مراحها ٠ وقد ناقش ايمرسون فى الجزء الأول من بحثه بعنف شديد تسلط القضاء والقدر ؛ الذى وصفه فى نعوت مختلفة مثـــــل ( الأمر الذى لا يقاوم ) و ( التحديد غير المتزعزع ) و ( قوانين العالم ) على حياة الانسان ، ولكنه أوضح أنه يعتزم تأكيد الليبرالية كما يؤكد وجود الضرورة ؛ ويريد أن يوضح أيضا كيف « تتفق الضرورة مع الضرورة » وقد فسر تأكيده فى القسم الأول من بحثه على عدم استطاعة متطلبات الانسان أن تهرب من مقتضيات الضرورة على أنه تخل ؛ أو على الأقل أضعاف خطير ؛ لمبدأ الاعتماد على النفس الذى كان يبشر به بقوة وبصورة كبيرة قبل ذلك بعشرين سنة ٠ ولكن اذا تعمقنا فى هذا البحث فانا لا نجد فيه شيئا يتعارض مع ما نادى به فى البحث الذى أعده من قبل عن « الاعتماد على الذات » وكما رأينا فان ايمرسون لم يعن بالاعتماد على الذات الارادة الحرة ؛ فالاعتماد على الذات انطوى منذ البداية على الاعتماد المطلق على ( الروح الكونية ) أو ( العقل الالهى ) الذى يخترق الكون كله ٠ وفى ذلك الوقت آثر ايمرسون أن يتحدث عن الوحدة المباركة وعن الضرورة الجميلة وعن الميول الرحيمة أكثر من حديثه عن الله أو للذات العلية ؛ ولكنه مع هذا تمسك برأيه الذى كونه لنفسه منذ زمن أن هناك قوة الهية تصدر الأوامر وتحدد الهدف واتجاهات الخليقة ٠ وقد أبلغ كارولين ستورجيس بتآن فى يوليو ١٨٥٣ أن « الكوب كله ليس الا تركيبة كيميائية واذا ما رحنا نتساءل بعظمة « من أين والى أين ؟) فان ذلك يخلق « جبالا من النفاية ترد شمس الصباح ونجمة المساء » ٠

والحق أن الصيغة التى تحدث فيها عن القضاء والقدر فى بحثه كانت أكثر قتامة من الصيغة التى صاغ بها بحوثه السابقة برغم انه كان هناك دائما لمحة من العبوسة فى كل شىء قاله ؛ وقد طالب ايمرسون الشعب الأمريكى منذ البداية بوجوب تغلبه على التفاؤل السطحى ومواجهة « الحقائق الكريهة » التى تزخر بها الحياة بأمانة وشجاعة . وفى كلمة له كان يمكن أن تزعج باين قال ايمرسون أن الطبيعة « لا تعرف العواطف » . وهى لا ترق ولا تدللنا . يجب علينا أن نعرف أن العالم قاس وفظ ، وانه لا يهتم اذا أغرق رجلا أو سيدة ؛ بل انه يلتهم سفينتك كما لو كانت حبـــــة من تراب . والأشخاص الباردون عديمو التبصر يختررون دماءك ويشلون حركة قدميك ويجمدون الانسان كما لو كان تفاحة . والأمراض والعناصر الطبيعية والحظ وجاذبية الأرض والرعد ؛ كل هذه أشياء لا تحترم أى انسان وطريق الله قاس نوعا ما ؛ وللعناية الالهية طريق شرس قاس غير محدود يمضى الى نهايته ؛ وليست هناك جدوى من محاولة تبرئة وسائلها الضخمة المختلطة بعضها ببعض أو أن تلبس هذا الجواد المحسن الرهيب قميصا نظيفا أو تضع عليه ربطة الرقبة التى يستعملها طالب الكهنوت » .

ومع أن ايمرسون كان يعتقد أن هناك رغبة رحيمة أساسية تعمل فى عملية الخلق الا أنه آمن أيضا أن من الضعف والجبن أن يغمض الانســـان عينيه أمام الحقيقة من أن الانسان يقع فى بعض الأحيان ضحية لعمليات الكون الاصلاحية الدائمة الاستمرار . وقد تتبع قوة القضاء والقدر فى الكون بفظاظة لا تلين ؛ وهى القوة المتمثلة فى قوانين الطبيعة العنيدة . وقد احيط بالانسان من كل جانب بظروف غاشمة ؛ فهيئتهم الموروثة ؛ سواء كانت للخير أو للشر؛ أمور قطعية لا تنقض ؛ وكوارث الحياة ؛ مثل المجاعات ومرض التيفوس والجليد والحروب والانتحار ؛ أمور تحصيها الاحصائيات . وحتى تقـــدم المدنية فانه لم يحرر الناس من القضاء والقدر . ويقول ايمرسون « اذا كنا وحوشا ومتوحشين فان قدرنا يأخذ شكلا وحشيا مخيفا ؛ وبقدر ما نهذب أنفسنا تصبح مصادماتنا أخف . واذا وفرنا لأنفســـــنا ثقافة روحية فان الخصومة والعداء يتخذان شكلا روحيا .. والحدود تخف كلما تطهر النفوس؛ ولكن حلقه الضرورة تظل مع هذا جاثمة دائما عند القمة » .

ومع هذا فانه بعد أن أكد ايمرسون عظمة القضاء والقدر ؛ راح يرفض

بشدة موقف الاستسلام المتراخى • واذا ألقينا نظرة موضوعية فاننا نجد فى الكون الذى تتحكم فيه الضرورة التى لا تعرف التسامح ولا الرحمة مجـالا للحرية البشرية تلك الحرية التى تأتى من أعمال البصيرة فى طبيعة الأشياء • ويقول ايمرسون أن العقل يلغى القضاء والقدر طالما أن الانسان يظن أنه حر » وكان مما قاله أيضا « ان وحى الفكر يخرج الانسان من العبودية الى الحرية •• وان أفضل الأيام اليوم الأعظم لعيد الحياة ؛ انما هو اليوم الذى تنفتح فيه الرؤية الداخلية (للوحدة) بين الأشياء ؛ والى وجود القانون فى كل مكان ؛ وترى ماذا يجب أن يكون أو ماذا قد سيكون أو تتعرف الى ما هو أفضل » وعلى هـذا فان القضـاء والقـدر كان « تسمية لحقـائق لم يمحصها الفـكر ولأسباب لم يتم بعد التفكير فيها » • والتفكير فى هذه الأسباب يعنى تهيئـة بعض خطوات التحكم فيها • ويقول ايمرسون : « ان أول خطوة الى داخـل الفكر تطيح بهذا الجبل من الضرورة •• والفكر يكون ويحلل الطبيعة ويعين الناس على التغلب على ظروفهم » ويقول : « لقد خطونا مرة صوب هـذا الطريق ومرة أخرى صوب طريق آخر ، أما الآن فنحن نشبه رجالا جلسـوا فى بالون لا يفكرون كثيرا فى الجهة التى تركوها ولا فى الجهة التى يودون الوصول اليها بل يفكرون فى ليبرالية وعظمة هذا الطريق » •

وصفوة القول فان الحرية تأتى من التعرف على القضاء والقدر ، أى من معرفة ما نستطيع وما لا نستطيع أن نفعله فى عالم تتحكم فيه قوانين معنوية ومادية متطابقة • وكان امرسون يصر على القول بأننا اذا توصلنا الى فهم القوانين التى تتحكم فى الظواهر فاننا نستطيع أن نسخدم هذه القوانين لمنفعتنا الشخصية ونتخلص من عبوديتنا للخصوصيات ، فقد كان البخار فى مرة من المرات « الشيطان الذى كنا نرهبه » لكن العلماء انتهوا الى القول أخيرا « بأنه حيثما كانت القوة فان الشيطان لا يكون وراءها بل الله » واكتشفوا ان البخار يمكن أن يستخدم المنفعة بين البشر • والجهل بوظيفة العناصر الطبيعية يعنى العبودية لها ، أما العلم بها فانه يأتى بالقوة ، ومن القوة تأتى الحـرية » وبقدر ما تضيف الى عقلك تضيف الى قواك العضـوية فالماء مثـلا يغرق السفينة والملاح مثلما تغرق حبة من تراب ، ولكن اذا تعلمت كيف تسبح وكيف تصلح شراعك فان الموجة التى أغرقت السفينة سوف تنفرج وتحملها كما تحمل الزبد الناتج عنها ، وهنا يمتزج عنصران هما الاعتزاز والقوة • وكذلك البرد فانه لا يبالى بالأشخاص فهو يجمد الانسان مثل ما يجمد نقطة الندى • ولكن

اذا عرفت كيف تتزحلق على الجليد فان نفس الثلج سيمنحك حركة رشيقة حلوة شاعرية · والمذبحة التى تنتج عن التيفوس تزيد كثيرا من مذابح الحروب ، ولكن اذا وضعنا نظاما جيدا للمصارف والمجارى فان هذا يقضى على التيفوس ، ووباء الجرب فوق البحار يشفى بعصير الليمون وغيره من الغذاء الذى يمكن نقله ويسهل الحصول عليه وفناء الناس نتيجة للكوليرا والجدرى يمكن أن ينتهى بوجود المصارف والمجارى وبالتطعيم ضد هذه الأمراض · وكل الأوبئة الأخرى لا تقل عن مثل هذا الخطر فى سلسلة العلة والمعلول ، وكلها يمكن محاربتها ·

وحسب ما أعلنه ايمرسون فان معرفة ضرورات الطبيعة فى حد ذاتها لم تكن كافية لخلق الحرية اذ يجب أن يصحب مثل هذه المعرفة اعتراف بالجود والخير اللذين تهيئهما القوى التى تنظم الكون والرغبة فى التوافق معها · والحرية كبصيرة وادراك كان لها بعد معنوى وبعد آخر عقلى · والعقل الوجدانى كما رآه ايمرسون ينطوى على العواطف والوجدان المعنوى كما ينطوى أيضا على الذكاء الفطرى · ويقول ايمرسون « اذا أمكن للفكر أن يجعلنا أحرارا فان هذا يمكن أن يتم أيضا من طريق الوجدان المعنوى » ويقول أيضا « ان وجود الادراك الحسى بالحقيقة لدى الانسان تصاحبه الرغبة فى أن يتم شيوع هذه الحقيقة · والادراك والبصيرة المنطقية فى ذاتها لا تأتى بنتيجة ، كما أن العواطف والتأثيرات الوجدانية تصبح عقيمة اذا لم تصحبها المعرفة ؛ والواجب أن يكون هناك امتزاج بين الادراك والوجدان لتوليد قوة الارادة » ·

فاذا أمكن للانسان مثلا أن يتفهم طبيعة البخار فانه سيدرك أن هذا البخار ليس قوة عمياء تعادى البشرية ؛ بل انها قوة تعمل لخير الجميع · واعترف الانسان بنفع البخار للانسان و « بالرغبة فى أن تشيع هذه الحقيقة » يدفع به الى تسخيره لاستعمالاته الخاصة الأمر الذى يحيل الضرورة الى فرصة · وتأكيد ايمرسون على ماذا يجب أن يكون وماذا كان ينبغى أن يكون أو ما هو الأفضل وهى أمور تخلقها المشاعر المعنوية شرط هام لتسخير الانسان للطبيعة مما ينتهى به الى تحقيق حريته ، ويقول ايمرسون « كل انسان له تجربة مع المشاعر المعنوية لا يمكنه أن يختار بين الأشياء بل يأمن بوجود قوى غير محدودة » ·

والكون الذى تخيله ايمرسون كون معنوى تماما ٠ وقد ربطت أفكاره منذ البداية بطريقة معقدة بين المعرفة والأخلاق والفضيلة ٠ ومما قاله « ان قوانين علم الطبيعة تترجم قوانين الأخلاق » وقوانين مثل : « الكل أكبر من الجزء » و « التفاعل يساوى الفعل » كان لها لدى ايمرسون معان أخلاقية ومعان مادية ٠

وقد أكد القول بأن القانون الأخلاقى « يكمن فى مركز الطبيعة فى وسطها حيث يبعث باشعاعاته الى محيطها » ، وقانون الأخلاق هو ذروة ولب كل جوهر وكل علاقة وكل عمل وكل الأشياء التى نتعامل معها تبين لنا ذلك ٠ وكان قانونه الشهير عن الجزاء الذى بين ان كل عمل طيب سيجزى جزاء حسنا بلا محالة وان كل عمل سيىء سيلقى عقابا نتيجة لهذا العمل توضيحا على أن الضرورة فى الأخلاقيات تتطابق مع الضرورة فى الطبيعة ٠ وقال ايمرسون : « ان قوانين الأخلاق هى فى أساسها نفس قوانين العلوم » وقد اقترب فى هذا الرأى بعض الشىء من باين طالما أن كلاهما يكمنان فى القوى الالهية التى تحرك الكون ٠ وعلى هذا فقد وحد الاثبات المعنوى مع الادراك المنطقى فى عمل الحرية الأمر الذى عكس ممارسته المسيحية ، وقد أصبح ما أسماه وينثروب وغيره من المسيحيين « الليبرالية التى جعلنا المسيح بمقتضاها أحرارا » لدى ايمرسون عبارة عن التنسيق بين ارادتنا الفردية وقوانين الكون المعنوية التى تتحكم فى الكون ؛ ولكن ايمرسون كان أقرب من حيث وجهة نظره الى العلمانيين الحديثين منه الى المسيحيين مثل وينثروب وقد اقترب الفيلسوف سدنى هوك الذى ظهر فى القرن العشرين كثيرا من ايمرسون حين أكد « ان حرية العقل تشمل قبول ما تكشف عنه المعرفة عن النظام الضرورى للأشياء ، وهذا القبول ليس استسلام الانسان الذى يكبت غرائزه وشهواته فى زهد قاس ويعيش فى حيرة واعياء فى عالم تواجه فيه فطنته وذكاؤه تعقيدات كثيرة ؛ بل القبول الذى يعد فى نفس الوقت تأكيدا بضرورة العالم ؛ تأكيدا يترك العقل سليما لا يقلقه وهم ولا كرب ٠ وعندما ينجم الفرح والسرور عن الفهم الكامل للضرورة فان الحرية تقوى عندئذ »٠

وعلى هذا فان الحرية التى أشاد بها ايمرسون تضمنت لا معرفة الضرورة وحدها بل موافقتها المفرحة لسيطرتها على الانسان وعلى الطبيعة ويقول ايمرسون « ان كل من يتطلع الى الأشياء من طريق النية والقصد

يتسلط عليها ؛ وعليه أن يقرر ماذا سيكون » وذلك بأنه بأعمال بصيرته فى الضرورة المعنوية الكامنة فى هيكل الأشياء وبالتنسيق بين ارادته وبين مثل هذه الضرورة فانه يرتفع بنفسه من توافه الحياة ومظاهرها المحدودة الزائلة الى مملكة القانون الكونى حيث يحقق حرية روحية حقه . وكان من رأى ايمرسون ان آخر درس يحصل عليه الانسان من الحياة هو الطاعة الاختيارية والحية اللازمة . والانسان يخلق من نفس الذرات التى تخلق العالم : وهو يشترك معه فى نفس الانطباع ونفس النزعات والتحيز ونفس المصير . وحين ينار عقل الانسان وعندما يصبح قلبه رقيقا رحيما فانه يلقى بنفسه فى غبطة وحبور فى النظام الفائق ويعمل على علم ما تعمله الأحجار عندما يقام منها البناء .

واختتم ايمرسون بحثه فى القضاء والقدر بمناشدة « الوحدة المباركة » التى تحتفظ بالطبيعة والنفس فى محلول كامل وتفرض على كل ذرة أن تخدم واحدة من الغايات الكونية . وكان مما قاله ايمرسون « دعونا نبنى المحاريب ( للضرورة الجميلة ) التى تكفل خلق كل الأشياء من قطعة واحدة .. دعونا نبنى ذلك ( للضرورة الجميلة ) التى تخلق فى الانسان الشجاعة لأن يؤمن بأنه لا يستطيع درء أى خطر قدر له من قبل ولا التسبب فى قيام أى خطر لم يحدد من قبل . لنبن ( للضرورة ) التى تعلم الانسان اما بعنف أو برفق ان يدرك أن ليس هناك أمورا طارئة وان هناك قانونا يعمل فى الوجود ؛ قانونا ليس عاقلا بل ذكيا ؛ قانونا ليس شخصيا ولا مبهما ؛ قانونا يزدرى بالألفاظ ولا يأبه بالفهم .. هذا القانون يذيب الأشخاص ويحيى الطبيعة ومع ذلك فانه ينقى صفاء القلب باستحالة كل قدراته على فعل كل شىء .

وكان ايمرسون يؤمن بأن نقاء القلب هو وحده الذى يحقق الحرية الحقيقة . والقلب النقى ينفتح لليبرالية الأحسن والأفضل ، الليبرالية التى يحصل عليها الشخص الأخلاقى عندما يحرر نفسه من نظرته الضيقة المحدودة الذاتية للأشياء ؛ وعندما يفطن الى القوانين الجيدة التى تحكم الكون وعندما يعتزم العمل بما يتمشى مع هذه القوانين باحترام وتوقير . وكان ايمرسون يرى فى التحرر العرضى من القيود الخارجية التى استرعت انتباه المصلحين الساعين لخير الانسان اذا ما قورنت بالاستقلال الذاتى المعنوى الذى يتمتع به الفرد المتلىء قلبه بالروحانية مجرد أمر تافه ولذلك فقد اختتم كتابه

« مسيرة الحياة » كما اختتم كتابه « الطبيعة » من قبل بنداء منفعل وجهه للناس بأن ينفذوا فى غيوم الوهم التى تحيط بهم ليصلوا الى الوقائع الروحية التى تكمن تحتها ويكيفوا حياتهم بالتنسيق معها · ولكنه لم يكن واضحا عما اذا كان يظن أن بصائر الانسان المنطقية والمعنوية يمكن أن تتحقق بحرية أو كانت مجرد تعبير مستكين عن « اللفظين الكبيرين من أين والى أين » اللذين اعتقد أنهما يسيران الخليقة جمعاء · وقد يكون هذا الذى حدث بسبب اللفظ الثانى · وكان ايمرسون يميل الى مطالبة الناس الذين كان ينكر عليهم تمتعهم بارادتهم الحرة ببذل جهود خلاقة مثله فى ذلك مثل ادواردز الذى حث الأشخاص القدريين باختيار الخلاص لمصيرهم · وقد بقى ايمرسون حتى النهاية غير قادر على تحرير نفسه من الجبرية المعنوية التى فرضتها عليه فلسفته الكهنوتية · ومع هذا فقد بدا أنه لم يهتم مطلقا بالتناقض بين مطالبته الانسان أن يبتدع وان يبتكر وأن يخلق وبين جبريته الكامنة ·

## الليبرالية المدنية والحرية المعنوية

لم يتخل ايمرسون قط عن اعتقاده بأن الحرية التى تتحقق من طريق الادراك والبصيرة المعنوية والفكرية كانت على رأس مجموعة القيم الانسانية· ومع ذلك فقد بدأ بعد أن زادت الثورة على الرقيق عام ١٨٤٠ فى النظر بعطف أكثر الى عمل المطالبين بالغاء تجارة الرقيق · هل كانت الحرية التى كانوا ينشدونها أمرا تافها حقا ؟ لقد ضعف يقين ايمرسون بهذا كثيرا بمرور الوقت· وقد زاد تعاطفه عام ١٨٤٠ مع قضية مناهضة الاسترقاق زيادة كبيرة ؛ ومنها زاد أيضا احترامه لذلك النمط من الحرية الذى كان يناضل المطالبون بالغاء تجارة الرقيق من أجله ·

وكان ايمرسون دائم المعارضة للاسترقاق ولكنه اعتقد وهو فى قمة تحمسه لنظرية التسامى ( الترانسندنتالية ) أنه اذا قوبلت مبادئه الرفيعة التى كان يبشر بها قبولا حسنا فان مشكلة الاسترقاق ستحل نفسها بنفسها · ولكنه لم يعد بعد ذلك متأكد من ذلك فقد لا تصبح « الشعوب النصف همجية » التى تقطن الجنوب متنورة بدون النشاط الذى يبديه المطالبون بالغاء تجارة الرقيق · وبدأ عام ١٨٤٤ فى الاشتراك فى الاجتماعات السنوية التى عقدتها

الجمعية المناهضة للاسترقاق فى ماساشوستس لتحرير جزر الهند الغـربية ؛ وهناك راح يشيد بانصار الالغاء على أنهم طرف من أطراف الحرية · وما أن صدر قانون العبيد اللاجئين عام ١٨٥٠ حتى انحاز تماما الى جانب مؤيدى الغاء تجارة الرقيق · وهنا أخذ ايمرسون يسأل نفسه : هل يستطيع أى انسان اضطر الى أن يذعن لهذا القانون أن يحقق أى حرية معنوية حقيقية ؟ كان ايمرسون على يقين من أن مثل هذا الانسان لا يمكنه أن يفعل ذلك وقد انتهى فى آخر الأمر الى الاعتقاد بأن الاسترقاق بالنسبة للزنوج يعنى الاسترقاق بالنسبة للبيض أيضا ؛ وبدت فكرته التى أعلن عنها عام ١٨٣٠ من أن العبد قد يتمتع بحرية داخلية يفتقر اليها سيده كأنها فكرة غير سديدة · ولما أقـر قانون العبيد اللاجئين شعر ايمرسون بأن عليه أن يهبط من عليائه وأن يشترك فى نشاط المطالبين بالغاء تجارة الرقيق · وقد أعلن بصوت عال حين أصبح هذا المشروع قانونا بقوله ·· « أقسم بالله بأنى لن اطيع هذا القانون » ·

وفى كلمة ألقاها ايمرسون أمام مواطنى كونكورد فى مايو ١٨٥١ أفصح اشمئزازه ونفوره التامين من قانون يطلب من سكان الولايات الحـرة أن يبعثوا بأناس احتملوا عذاب التعيير والتهكم والذين بعـدوا عنهم ألف ميـل ليحصلوا على حريتهم اليهم ثانية ليعملوا لديهم كعبيد ؛ وكان مما قاله وهو فى حالة غضب « ان الاعتقاد العام بأن كل الناس يعشقون الحرية » تحول الى تفاخر ومباهاة أمريكية جوفاء ؛ والواقع أن الأشخاص الذين عرفوا وحاولوا أن يكونوا من محبى الخير هم وحدهم الذين وجدوا أنهم يقفون الى جانب الحرية فى أزمة الرقيق » · وقد أدى موقف ادوارد ايفرت من الكونجرس ؛ وكان فى نظره وهو شاب بطلا من الأبطال الى أن يعجب عما اذا لم تكن الكلمات التى تشدق بها أستاذه السابق عن الحرية مجـــرد هراء · ولكن ازدراءه لدانييل وبستر للمساعدة التى قدمها لاقرار مشروع العبيد المهاجرين كان بلا حدود · وقد كتب فى مذكراته « ان كلمة الليبرالية فى فم مستر وبستر كانت تنطلق كلمة ( الحب ) من فم احدى الغانيات » ، وكان ايمرسون يعتقد أن وبستر ساعد على الهبوط بولاية ماساشوستس الى مستوى الوحشية ؛ وان الأشخاص ؛ أمثال أفريت ؛ الذين ايدوا مواقف وبستر كشفوا عن أن ليس لديهم الا قدر ضئيل من الحب لليبرالية ·

وفى محاضرة ألقاها ايمرسون بمدينة نيويورك يوم ٧ مارس ١٨٥٤

فى الذكرى الرابعة للخطاب الشهير الذى ألقاه وبستر يؤيد فيه (الحل الموفق) الذى توصل اليه عام ١٨٥٠ تحدث ايمرسون بكلمات ملتهبة عن ذلك النمط من الحرية الخارجية التى أعجب بها فى الماضى اعجابا عظيما ٠ وكان مما قاله باخلاص وصراحة « اننى لم أشعر قط بأى كبت لحريتى فى الحـــديث والعمل الا بعد أن فرض مستر وبستر منذ أيام قانون العبيد اللاجئين عــلى البلاد نتيجة لتأثيره الشخصى » ٠ وقد بدت الليبرالية التى خانها وبستر لايمرسون الآن كأنها مؤشر صحيح للتقديم العام سواء كان بين الناس أو بين الشعوب ٠ والواقع أن نظرية الليبرالية الشـــخصية يجب أن تحظى دائما بالاعجاب من قبل أكثر المجتمعات المثقفة ومن قبل أفراد من ذوى الادراك القادر والشعور المعنوى المرهف ٠

وقال ايمرسون « ان العالم وجد فى واقع الأمر ليعلمنا علم الليبرالية التى تبدأ بالتحرر من الخوف » وحث مستمعيه على أن يفعلوا ما يستطيعون لما فيه الخير لقضية الحرية ٠ وفى يناير ١٨٦٠ ألقى خطابا فى مدينة ( سالم ) أشاد فيه بجون براون ووصفه بأنه « مؤسس الليبرالية بكنساس » وفى يونيه تحدث فى بوسطن عن تيودور باركر ؛ أحد المطالبين بالغاء تجارة الرقيق ؛ مشيدا بالخدمات الجليلة التى قام بها من أجل الحرية ٠ ولما نشبت الحـــرب الأهلية عدها نزاعا خطيرا بين الاسترقاق والحرية « يقف فيه أحد الجيشين الى جانب الرق المحض ؛ ويقف الجيش الآخر الى جانب الحرية المحضة » وكان ايمرسون مقتنعا بأنه اذا ألغى الرقيق فى الولايات المتحدة بسبب الحرب فان من المقدر لها أن تدخل فى عهد جديد فيه تزدهر حرية الرأى وحـــرية الدين وحرية الخطابة وحرية التصويت فى الانتخابات وهنا وفى ذات الوقت ٠